أسلوب الفنقلة في التحليلات البلاغية لجار الله الزمخشري في تفسير الكشاف

الدكتور حميد رضا مشايخي (الكاتب المسؤول)
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران
Mashayekhih@umz.ac.ir
مهدي شاهرخ
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران
m.shahrokh@umz.ac.ir
يونس ياسين الدهيمي
طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران
Yasynywns157@gmail.com

The style of fanqalah in the rhetorical analyzes of Jarallah Al-Zamakhshari in Tafsir Al-Kashshaf

Dr. Hamid Reza Mashayekhi (Responsible writer)
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , University of Mazandaran , Iran
Dr. Mehdi Shahrokh
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , University of Mazandaran , Iran
Younes Yassin Al-Dahimi
PhD student , Department of Arabic Language and Literature , University of Mazandaran , Iran

الملخص:-

كتاب الكشاف عن حقايق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي المعروف بجارالله من أقدم وأجمع التفاسير القرآنية التي اشرأب من المنهج الاعتزالي في الكلام لأنّ صاحبه الزمخشري برزت في القرن الخامس الهجري من كبار رجال المعتزلة الذي كان لهم وأئمتهم أثر كبير في إثراء الفكر الإسلامي. يدرس هذا المقال أسلوب الفنقلة لجار الله الزمخشري في تحليلاته البلاغية في تفسيره الكبير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي. تشير نتائج البحث إلى أنّ الزمخشري لقد اعتمد على طريقة الفنقلات في طَرْق جوانب عديدة وعَرْض قضايا مختلفة ومناقشتها، كما سمحت له بتوسيع معنى الآيات وإثراء تفسيره بمباحث مميزة في شتّى الفنون؛ من بلاغة ونحو وصرف ورسم وعقيدة وفقه وغيرها وأما الافتراضات الخاصة بالبلاغة، فقد كانت الجانب البارز من الكشّاف، ولقد وظف الزمخشري طريقة الفنقلات لتوسيع البحث في القضايا البلاغية الكاشفة عن سرّ النظم. ثمّ إنّ الزمخشري ميّز بين الكناية والتعريض وفرق بينهما، ثمّ لم يحظ علم البديع بالعناية التي حظي بها القسمان الآخران من أقسام علم البلاغة، وهما علم البيان وعلم المعاني، والسبب في هذا من وجهة نظر الدراسة يعود إلى نظرته إلى هذا الفرع على أنه ذيل لهما، ولهذا فقد أدخل مسائله في المسائل التي تخص هذين العلمين، من قبيل أن المسألة تتعلق بالبيان والمعاني وتتداخل معهما.

الكلمات المفتاحية: تفسير الكشاف، أسلوب الفنقلة، التحليل البلاغي، جار الله الزمخشري.

Abstract:-

The book "Revealing the Truths of Revelation and the Eyes of Sayings in the Faces of Interpretation" by Abu al-Qasim Mahmoud bin Omar bin Muhammad al-Zamakhshari al-Khwarizmi, known as Jarallah, is one of the oldest and most comprehensive Qur'anic interpretations that imbued the Mu'tazila approach in speech because its author, al-Zamakhshari, emerged in the fifth century AH from the great Mu'tazila men who were their imams. A significant impact on enriching Islamic thought. This article studies the style of fanqalah by Jar Allah Al-Zamakhshari in his rhetorical analyzes in his great interpretation Al-Kashshaf of the Truths of Revelation and the Eyes of Sayings in the Faces of Interpretation, relying on the descriptive and analytical approach The results of the research indicate that Al-Zamakhshari relied on the method of verses to approach many aspects and present and discuss different issues. It also allowed him to expand the meaning of the verses and enrich his interpretation with distinctive topics in various arts. Of rhetoric, grammar, morphology, drawing, doctrine, jurisprudence, and others. As for the assumptions related to rhetoric, they were the prominent aspect of Al-Kashaf, and Al-Zamakhshari employed the method of narrations to expand research into rhetorical issues that reveal the secret of systems Then, Al-Zamakhshari distinguished between metonymy and exposition and differentiated between them. Then the science of badi' did not receive the attention that the other two sections of the science of rhetoric received, namely the science of rhetoric and the science of meanings. The reason for this from the point of view of the study goes back to his view of this branch as a tail of them. Therefore, he included his issues in the issues pertaining to these two sciences, such that the issue relates to explanation and meanings and overlaps with them.

Key words: Al-Kashshaf's interpretation, fanqalah style, rhetorical analysis, Jar Allah Al-Zamakhshari.

المقدمة:

بذل العلماء عناية خاصة بتوجيه القراءات وبيان حججها، وكانت أكثر ما تدور حول القضايا اللغوية والنحوية، أما البلاغية فهي أقل حظاً بل وتظهر أحياناً من بين ثنايا التوجيهات النحوية. وقد تعلمنا أنّ الزمخشري من بين من برعوا في البلاغة وأنّ ألوانها وأساليبها كانت بارزة في كتابه الكشاف، كما أنّه ممن تلمس الأوجه البلاغية المترتبة على تغاير وتنوع القراءات القرآنية، فاستعنّا بالله أن يكون موضوع بحثنا موسوماً "أسلوب الفنقلة لجار الله الزمخشري في تحليلاته البلاغية في تفسير الكشاف ".

إن هذه الدراسة تبين أثر البلاغة في تفسير القرآن كما جاء في تفسير الكشاف للزمخشري، وهو أحد رؤوس المعتزلة، وتفسيره أشهر تفاسيرهم التي وصلت إلينا، إن لم يكن من أشهر كتب التفسير الإسلامي على الإطلاق، ولذا فإنّه يمكن القول إنّ أهمية هذا الموضوع تأتى من جهتين: الأولى أنّ الزمخشري معتزلي صاحب فكر ونظر في تفسير القرآن، بما يتفق مع الدلالات التي يتواخاها بعض فرقة المعتزلة؛ ولذا جاء تركيزه على الناحية البلاغية، ممّا يجعل من تفسير الكشاف مرجعية في علوم البلاغة التي تعدّ من الطرائق المهمة في توصيل المعاني والأفكار، وأما الثانية، فالزمخشري كان بلاغياً أيضاً، وله معجم أساس البلاغة، وهو معجم لغوي ركز على خروج اللفظة من المعنى المعجمي المباشر إلى المعاني المجازية، وأثر البيان في توليد المعاني للمفردات اللغوية.

أهداف البحث:

يمكن حصر أهداف البحث فيما يأتي:

١. البحث عن الصور البيانية والأساليب البلاغية التي تدل عليها وجوه القراءات المختلفة، وبيان روعة التنوع في الأداء الفني الجمالي وبيان أهمية تنوع القراءات في الكشف عن غزارة معاني النص القرآني.

٢. التعرف على منهج الزمخشري في عرض القراءات وتناولها في كتابه، وإبراز الصور البلاغية عن طريق تنوع هذه القراءات؟ واستخدامه طريقة الفنقلة في ذلك.

أسئلة البحث:

هذه الأسباب المذكورة وأهداف البحث كلّها دفعتنا إلى التساؤلات التالية.

١. ما مدى إعمال الزمخشري للبلاغة في وجوه القراءات من خلال تفسيره؟

٢. هل التزم الزمخشري بما صح من القراءات في إبراز الوجوه البلاغية أو تعداها إلى غيرها؟

وأما منهجنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي المعتمد علي الدراسات المكتبية.

الدراسات السابقة:

قد تبين أنّ موضوع توجيه القراءات وتناول الزمخشري لها في كتابه قد درس ولكن من زوايا أخرى منها ما يلي:

١. مذكرة ماجستير موسومة "توجيه القراءة الشاذة عند الزمخشري في كتابه الكشاف نماذج تطبيقية" للطالبة بكوش صفية شعبة العلوم الإسلامية تلمسان، وقد اقتصرت على القراءة الشاذة دون المتواترة واهتمت بالجانب النحوي واللغوي. كذلك أطروحة دكتوراه موسومة "صور" البيان في تفسير الزمخشري" للطالب عبد الجليل مصطفاوي، قسم اللغة العربية وآدابها تلمسان، ولم تتعرّض للتوجيه ولا القراءات.

٢. رسالة ماجستير موسومة "تأويل القرآن عند المعتزلة من خلال تفسير الكشاف"، قسم اللغة والأدب تيزي وزو، للطالب خالد سوماني، والغرض منها كشف الجانب الاعتزالي في الكشاف وكذلك أطروحة دكتوراه موسومة "القراءات المتواترة في تفسير الزمخشري" جامعة اليرموك قسم التفسير وعلوم القرآن ولم يركز على الجانب البلاغي كما أهمل القراءة الشاذة.

فجاء موضوع هذا المقال شاملاً للقراءات بنوعيها ومركزاً على الجانب البلاغي الذي برع فيه الإمام، لأنّ من البحوث السالفة من ذكر ذلك عرضاً لا غرضاً.

التعريف بالمؤلف:

الإمام جار الله الزمخشري صاحب الكشاف كما نعرف اسمه الكامل هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي الإمام الحنفي المعتزلي (الذهبي، ٢٠٠٠: ٣٠٤) لقب بالخوارزمي لأنه وُلد في منطقة خوارزم في خراسان، ولُقّب بالزمخشري

لأنّه ولد في قرية (زمخشر) في إقليم خوارزم. وُلد صاحب الكشاف في رجب سنة ٤٦٧ هـ (سبع وستين وأربعمائة من الهجرة) بزمخشر - قرية من قري خوارزم - وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، ودخل خراسان مراراً عديدة. وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسلم واعترف به. ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعته. (الذهبي، ٢٠٠٠م، ج١: ٣٠٤).

من أشهر مؤلفاته: الكشاف (في تفسير القرآن)، ديوان الأدب، ربيع الأبرار، أساس البلاغة، أعجب العجب في شرح لامية العرب، الأنموذج في النحو، النصائح الصغار، الفائق في غريب الحديث، مقامات الزمخشري (تدور على الوعظ والارشاد)، نوابع الكلم في اللغة.

تعريف أسلوب الفنقلة وتوظيفه في الكتابات العربية:

الفنقلات: أسلوب تعليمي اشتهر وسط المحاضر الإسلامية، يقوم أساس على طرح استشكالات بافتراض سؤال ثم الجواب عنه، وذلك بتوظيف عدة صيغ أشهرها:) فإن قلت: كذا... فالجواب:.... أو: فإن قيل: كذا. قلتُ:...، أو: فإن قال قائل: كذا... قيل:..)، وهي طريقة السؤال والجواب.

ولشهرة هذا الأسلوب نحت له العلماء مصدر سموه بـ (الفنقلة) أي: اختصار لجملة:) فإن قلت.. قلتُ)؛ كالحمدلة والبسملة وغيرهما، ولقد أكثر الزمخشري منها في تفسيره كثرة بارزة حتّى صارت طابع مميز لتفسيره يقول صبحي الصالح: «وخير من يمثل هذه النزعة العقلية في التفسير: الزمخشري محمود بن عمر الملقب بجار الله، المتوفى سنة ٥٣٨هـ - في كتابه (الكشاف) الذي يمتاز بإيراد النكات البلاغية وتحقيق بعض وجوه الإعجاز، بطريق الفنقلة، أي: فإن قلت.. قلت» (الصالح،،٢٠٠٠: ٢٩٤) وكذلك نص على هذه الظاهرة المميزة عند الزمخشري أحمد ياسوف بقوله: «ذلك المفسّر الذي يكشف النقاب عن إيحاءات المفردة وظلالها النفسية... فيستخدم أسلوب الفنقلة على جاري عادته في تفسيره» (ياسوف،١٤١٩ق/١٩٩٩م: ٢٦٠) والغرض من هذا الأسلوب التعليمي هو إثارة المتعلمين وتشويقهم إلى معرفة بعض النكات والفوائد، وتثبيتها في أذهانهم، فهي إجراءات عقلية مؤيدة بالأدلة؛ ولذلك كثرت الافتراضات العلمية خاصةً في الشروح، وقد انتشرت هذه الطريقة في كل المصنفات القديمة على تباين اتجاهاتها في العقيدة والفقه والنحو والتفسير

وغيرها، وهي في كتب العربية باب مهم من أبواب البحث، من لدن سيبويه (ت١٨٠هـ) الذي وظفها كثير، من ذلك قوله: «فإن قلت: ضربني زيد وعمر مررت به. فالوجه النصبُ...، وإذا قلت مررتُ بزيد وعمر مررتُ به. نصبت وكان الوجة» (أبو بشر، ١٩٨٨، ج١: ٩٢) وقد أحصيت منها أكثر من مائة موضع في الكتاب وكما هو معلوم فقد شحن سيبويه (ت ١٨٠ق) كتابه بأقوال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ق)، وكان كثير ما يصوغها بطريقة السؤال والجواب بينه وبين شيخه الخليل وفق نمط تعليمي، بقوله: قلتُ: أرأيتَ قولهم: يا زيد الطويل. علام نصبوا الطويل؟ قال: نُصب لأنه صفة لمنصوب، وقال: وإن شئتَ كان نصب على أعني، فقلتُ: أرأيت الرفع على أيّ شيء هو إذا قال: يا زيد الطويل؟ قال: هو صفة لمرفوع، قلتُ: ألستَ قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصب، فلمَ لا يكون كقوله: لقيتُه أمس الأحدث؟ قال: من قبل أن كل اسم مفرد في النداء مرفوع أبداً» (المصدر نفسه)

أسلوب الفنقلة عند الزمخشري وأهميتها:

من الظواهر التي يلمحها الناظر في تفسير "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" الذي ألفه جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ق)، والتي لا تفتأ تتكرّر من أول الكتاب إلى آخره، وتتجدد في تفسير كل سورة من سور القرآن: ظاهرة افتراض الأسئلة والجواب عنها، حيث يثير الزمخشري أسئلة افتراضية تتطرّق لجوانب عديدة وتسمح له بتوسيع المعنى وعَرْض قضايا مختلفة إلى مناقشتها، ثم يجيب عنها مُبديًا رأيه فيها، محللاً الأقوال يرمي ومرجحاً لأحدها، أو يبتكر قولاً جديداً إذا لم يرتض أياً منها، ويصوغها بقوله: فإن قلت: كذا وكذا... قلتُ: كذا وكذا...»، وقد اصطلح على تسمية هذا الأسلوب (فنقلة)، واشتهرت باسم: (فنقلات الزمخشري).

لقد تكرّر توظيف الزمخشري لأسلوب الفنقلة في ألفين وخمسمائة (٢٥٠٠) موضع، من أوّل الكشاف إلى آخره، وفي تفسير كلّ سورة من سور القرآن، ممّا لا يدع مجال للشك في أهمية هذا الأسلوب عند الزمخشري، فقد كان لطريقة افتراض الأسئلة والأجوبة أعظم الأثر في إثارة القارئ وتشويقه إلى معرفة بعض النكات والفوائد، وتثبيتها في ذهنه؛ كما ظهرت أهميتها أيضاً في إتاحة الفرصة للزمخشري لولوج أبواب كثيرة وطرح قضايا متنوعة للنقاش، ممّا أسهم في إثراء تفسيره وجعل منه موسوعة تفسيرية حافلة بمواضيع شتى في اللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات والاعتزال وغيرها.

كما تجلت أهمية أسلوب الفنقلة في خدمة الجدل العقلي الذي اشتهر به المعتزلة - والزمخشري من رؤوسهم - فقد كانوا أقوياء في الحجاج والمناظرة، ويُغلقون على الخصم كل منافذ الردّ بتوقع أسئلته والجواب عنها قبل أن يطرحها، وبالتالي يقطعون حجاجه قبل أن يمتد، ويئدونه قبل أن يولد، ولهذا كثر هذا الأسلوب في مؤلفات المعتزلة؛ ككتب القاضي عبد الجبار مثلاً.

تأصيل الزمخشري لأسلوب الفنقلة:

إنّ الأهمية الكبيرة لأسلوب الفنقلة في عرض المسائل ومناقشتها سبب كافٍ لتفسير كثرتها في تفسير الزمخشري، غير أنّه ممّا يلفت الانتباه أنْ تجد الزمخشري نفسه يؤصل لأسلوب الفنقلة من القرآن الكريم، ويحتج له بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢) فالسؤال المفترض هو: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ،) والجواب عليه: قل: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وقد بين الزمخشري وجه الاحتجاج بهذه الآية على طريقة الفنقلات بإيراد السؤال الآتي: «إن قلت: أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ ثم أجاد في بيان النكتة قائل: قلتُ: فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطعُ للخصم وأرَدُّ لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم» (أبو بشر، ٢٠٠٠م، ج٢،ص١)

وهذا الجواب يؤكد ما ذكر آنف أنّ طريقة الفنقلة بتوقع سؤال الخصم والجواب عنه أقطع لحجته، وأدحض لشبهاته، ولقد استحسن ابن المنيّر (ت ٦٨٣هـ) هذه النكتة من الزمخشري وقال بأنها «نكتة بديعة وأحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية (الزمخشري، ١٤٠٧ق، ج١: ١٩٨).

مجالات استخدام أسلوب الفنقلة عند الزمخشري:

لقد اعتمد الزمخشري على طريقة الفنقلات في طَرْق جوانب عديدة وعَرْض قضايا مختلفة إلى مناقشتها، كما سمحت له بتوسيع معنى الآيات وإثراء تفسيره بمباحث مميزة في شتّى الفنون؛ من بلاغة ونحو وصرف ورسم وعقيدة وفقه وغيرها، ففي النحو، مثلاً: «فإن قلتَ: بِمَ تعلّقَت الباء؟ قلتُ: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذي يتلو

التسمية مقروء» (الزمخشري، ١٤٠٧ق، ج ١: ٨)

وفي الرسم مثلاً: «فإن قلت: فلِمَ حُذفت الألف في الخط وأُثبِتَت في قوله: باسم ربك؟ قلتُ: قد اتّبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال، وقالوا: طُوّلت الباء تعويض من طَرْح الألف» (المصدر نفسه، ج ١: ٥)

والصرف نحو: «فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلتُ: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعد معنًى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: أله، إذا تحيّر، ومن أخواته: دله وعله. ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفَشا الباطل، وقَلّ النظر الصحيح» (المصدر نفسه، ج ١: ٦).

والأصوات نحو: «فإن قلت: هل تفخم لامه؟ قلتُ: نعم، قد ذكر الزجاج أن تفخيمها سُنّة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابر عن كابر» (المصدر نفسه، ج ١: ٦).

والدلالة نحو: «فإن قلت: ما معنى المراءة؟ قلتُ: هي. مفاعلة من الإراءة؛ لأنّ المرائي يُرِي وهم يُرونه الثناء عليه والإعجاب به» (المصدر نفسه، ج ١: ٨٠٥).

وأما الافتراضات الخاصة بالبلاغة، فقد كانت الجانب البارز من الكشّاف، ولقد وظف الزمخشري طريقة الفنقلات لتوسيع البحث في القضايا البلاغية الكاشفة عن سرّ النظم، يقول فضل حسن عباس: «طبق الزمخشري نظرية عبد القاهر في الإعجاز، فليس معنى هذا أنّه مُزجي البضاعة، مكتسب الصناعة، بل كان تطبيق خبير ناقد، ليس كنّ جاسي، ولا غليظ جافي، وكانت له زيادات كثيرة يظهر فيها حذقه وبراعته، ويظهر كثير من هذا في أسلوب الفنقلة» (عباس، ١٤٣٧ق: ٢٧٧)

اعتراض ابن المنير على استخدام الزمخشري لأسلوب الفنقلة:

لقد أثنى ابن المنير (ت ٦٨٣ق) في مواضع كثيرة على النكات الحسنة التي استنبطها الزمخشري، غير أنّه قد أنكر عليه في بعض المواطن كيفية صياغة الأسئلة، ورأى أنّ فيها أحياناً قلة أدب مع المولى عزّ وجل، من ذلك تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي

هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران ١١٧) حيث أورد الزمخشري السؤال الآتي: «فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصِّر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح؟» (الزمخشري، ١٩٩٨م، ج ١: ٤٠٥) فردّ عليه ابن المنير مغلظ عليه اللهجة ومشدّد عليه الوطأة ومصوّب له في كيفية التساؤل بقوله: «أما إيراد السؤال فلا تُرتضى صيغته لما فيها من حيف بالأدب؛ إذ جزم السائل المقدّر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض؟ ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإنّ أحدنا لو أورد سؤال على كلام إمام معتبر بمرأى منه، ومسمع، تحوّل في أنواع التلطف في إيراده وبعد عن أمثال هذه العبارة. ولعلّ الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارد لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد! وأن يتأدب في الإيراد!» (المصدر نفسه، ج١: ٤٠٥).

وأحيانًا يصف ابن المنيّر أسئلة الزمخشري بالبرودة وقلة الجدوى، ومثال ذلك سؤال الزمخشري: «فإن قلت: لِمَ جاز أن تكون زوجة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة، ولم يكن كفرها متعجب منه وفجورها متعجب منه؟ قال أحمد بن المنيّر: وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال! كأنّ أحد يشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة، مما ينكره كل عاقل ويتعجب منه كلّ لبيب، والله الموفق» (حاشية ابن المنير على الكشاف، المصدر نفسه، ج٣: ٢٢٠).

هذه الاعتراضات اليسيرة من ابن المنيّر إلا أنّه قد أثنى على ما استنبطته قريحة الزمخشري ومع من نكات بلاغية مهد لها بأسئلة تستفز ذهن القارئ لمعرفة أجوبتها، فيقع الجواب على نفس متشوّفة عطشى للمعرفة، فيرسخ ويقرّ في نفسه.

ممّا سبق يتبين لنا كيف شكل أسلوب الفنقلة طابع ملحوظ في الكشاف مقارنةً بغيره من كتب التفسير؛ فهذا الأسلوب، وإن كان معروف منذ القديم في الكتابات الشرعية واللغوية،

إلا أنّ الزمخشري توسّع في توظيفه بشكل منقطع النظير، وجعله من الأسس التي أقام عليها الكشاف. وقد رأينا أن فائدة أسلوب "الفنقلة" تتجلى في جانبين؛ جانب تعليمي: وذلك بافتراض أسئلة يحتاجها المتعلّم بأسلوب مشوّق لمعرفة الأجوبة، فتقع الفوائد على نفس متلهفة، مما يكون له عظيم الأثر في ترسيخ المعلومات في أذهان المتعلمين، وكذلك تظهر فائدة هذا الأسلوب التعليمية في توسيع دائرة التحليل ليشمل قضايا علمية متفرّقة، وقد وظف الزمخشري هذه الطريقة في إثراء معاني الآيات، واستطاع بفضلها أن يلج أبواب مختلف الفنون ويناقش مسائل هذا العلم تطبيق على الآيات القرآنية. وجانب جدلي حجاجي: وذلك لأنّ المعتزلة والزمخشري من رؤوسهم - كانوا مشهورين بقوّتهم في الحِجَاج العقلي والمناظرة، وكانوا يُغلقون على الخصم كلّ منافذ الردّ بتوقع أسئلته والجواب عليها قبل أن يطرحها، وبالتالي يقطعون حجاجه قبل أن يمتد، ويئدونه قبل أن يولد. كما أنّ كثرة الفنقلات في الكشاف (٢٥٠٠ فنقلة) يجعل منها ميدان خصب للدراسة، وقد درس ما تعلق منها بعلم المعاني، ويوصى بدراسة النكات البلاغية الكامنة في فنقلات الزمخشري الخاصة بعلم البيان في بحث أكاديمي، وهي كثيرة جدّ وتضم مادة بيانية نافعة.

التطبيقات البلاغية في تفسير الزمخشري واستخداماته أسلوب الفنقلة فيها:

أولاً: نماذج من دلالات علم المعاني في النظم القرآني.

من بين ما تحدث عنه كثيرا في تفسيره أسلوب التقديم والتأخير، ومثال ذلك عند تفسيره قوله قال تعَالَى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر: ٢) الزمخشري: "فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما ل (أن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معاهم أي مغالبتهم- وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم (الزمخشري، ج٤ ص٤٨٧)

كما تحدث عن أسلوب الالتفات من ذلك قوله في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٣) "الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ ((يونس:٢٢)

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ (فاطر: ٩)

وبين أن هذا كان جريا على عادة العرب في الكلام فقال: وذلك عادة افتنام في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع إنه لما ذكر الحقيقة بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له، لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به (الزمخشري،١٩٩٨م، ج١ ص٢٤).

كما تحدث عن أسلوب النداء كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١) فيقول: "و (يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد: وت يهتف به لمن يناديه، وأما نداء القريب فله (أي) و(الهمزة)، ثم استعمل في مناداة من سهى وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد، فإن نودي به القريب الفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا. فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جواره: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به وأبصر.؟ قلت هو اسقتصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفي، وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله... فإن قلت: لم كثر النداء في القرآن على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟. قلت لأن فيه أوجها من التأكيد وأسبابا من المبالغة منها ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرج من الإبهام في (أيها إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كل ما نادي الله به عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، وفي اقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه. أمور عظام وخطوب جسام، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون، فاقتضى الحال أن ينادوا بالأكد والأبلغ (المصدر نفسه٩٦).

إن هذه الإشارات التي ذكرناها عن الزمخشري في هذا المجال إنما هي غيض من فيض، ولكن حسبنا في هذا المقام أن نشير إلى اهتمام الزمخشري ببيان بلاغة القرآن وروعة نظمه من

خلال التطبيقات التي هي مبثوثة في ثنايا تفسيره.

إلا أن المتأمل فيما ذكره الزمخشري من نماذج عن أساليب القرآن المختلفة بـ تأثر كثيرا بعبد القاهر الجرجاني وقد استفاد إفادة كبيرة من نظريته التي بناها على النظم القرآني وذلك ما صرح به كثير من الباحثين في البلاغة العربية حيث إننا: " إذا تتبعنا جهود الزمخشري البلاغية في كتابه الكشاف في تفسير القرآن فإننا نجده يستمدها من بلاغة عبد القاهر وقواعده ملتمسا لها الشواهد من آي الذكر الحكيم ومضيفا إليها ما يعن له من آراء وتقسيمات وتفريعات. ففي ميدان (علم المعاني نراه يعرض للإيجاز والإطناب وأنواع كل منهما وأغراضه البلاغية والتقديم والتأخير في المسند إليه، والأغراض المستفادة منه في حالة تعريفه وتنكيره، كما يعرض لأضرب الخبر وأساليب الإنشاء الطلبي من أمر ونهي واستفهام ونداء وتمن وللمعاني الزائدة التي يخرج كل منها عن معناه الحقيقي للدلالة عليها وكذلك يعرض للقصر وأقسامه وطرقه والفصل والوصل بالواو خاصة"(عتيق، ب،ت: ٢٦٤)

ثانياً: نماذج من دلالات علم البيان في النظم القرآني.

١ - المجاز

ورد في اللسان: جوز: جعل فلان ذلك الأمر مجازا إلى حاجته أي طريقا ومسلكا، وتجوز في كلامه أي تكلم في المجاز، وقيل إنه من الجوز القطع والسير (الجرجاني،٢٠٠٥م: ٣٤٢)، والمجاز على وزن مفعل عند عبد القاهر الجرجاني من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه. (المصدر نفسه: ٣٤٢).

والمجاز اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمحاج والمزار، وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى آخر، وأخذ هذا المعنى واستعمل للدلالة على نقل الألفاظ من معنى إلى آخر (مطلوب، ٢٠١٥م، ١٩٣).

وقد ذكره في مواضع عديدة من ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة: ٧) فنجده يعرض وجوها خمسة (الزمخشري، ج١: ٦١٥٩) في إسناد الختمية إلى الله كلها مسخرة لخدمة فكرة المعتزلة عن العدل الإلهي يقول: "فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية

ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز. (المصدر نفسه: ٥٧)

كما تحدث عنه وعن علاقاته، خاصة السببية فنجده يقول معلقا على آية التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (التوبة: ٣٤)

الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل ومنه قوله:

إن لنـــــا أحمـــــرةً عجافـــــا يـــــأكلن كـــــل ليلـــــة إكافـــــا

يريـــد علفـــا يشـــترى بـــثمن إكـــاف"

(الزمخشري، ج٢ ص٢٥٧)

وقال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٠) "لسان الصدق والثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية قال: إني أتتني لسان لا أسر بما ٢٥ يريد الرسالة ولسان العرب لغتهم وكلامهم[1].

وإذا نظرنا إلى أمثلة الزمخشري حول هذا الموضوع نجدها كثيرة، نـــورد منها: ما جاء في قوله تعالى: (أم أنزلنا عليهم سلطانا، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) (الروم، ٣٠/٣٥) قال الزمخشري: " السلطان الحجة، و(تكلمه) مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم، وبصحته... ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون، ويحتمل أن يكون المعنى: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان، أي: ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون (الزمخشري، ٣/٢٢٢-٢٢٣). وقد عبر بالكلام لأنه سبب في الدلالة، وكذا في اطلاق اليد على النعمة، أو القدرة لأنها سبب منها فكلامه يؤكد أسباب شركهم لذا فهو مجاز علاقته السببية أو يعتمد عليها في التوضيح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ((البقرة، ٢/١٩٥) وتقديره عند الزمخشـــري (ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها، والمعنى النهي عن ترك الإنفاق في بيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف (المصدر نفسه، ١/٣٤٣)، والإنسان يستخدم يده في الإنفاق أو البذل، ولكنه استخدمها هنا لتكون سببا في هلاكه، وذلك لعدم انتفاعه بها واستخدامها بشكل سيء، ولكن دفع الأموال لأجل إعلاء كلمة الله لا يعتبر إسرافا، فالحسنة بعشرة أمثالها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة، ٥/٦٤) قال الزمخشري: غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى:) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ((الإسراء، ١٧/٢٩) ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا على ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه؛ لأنهما كلامان متعاقبان على حقيقة واحدة حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، الكلام السابق للزمخشري وفيه نلحظ المعتزلي المعروف، فهو يحاور وينفي عنه سبحانه إلا ما أثبته هو لنفسه، يتساءل: كيف جاز أن يدعو الله عليهم، بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ يجيب على ذلك بأن: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم، فيزيدون بخلا على بخلهم ونكدا إلى نكدهم، أو بما هو سبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ١/٦٢٨)؛ إذن فغل اليد أو بسطها دلالة على مسبب العطاء والمنع فهو مجاز مرسل علاقته السببية؛ أي سبب الخير أو منعه.

٢- الكناية:

الكناية: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره يكنى كناية، وقد تكنى أي تستر، من كنّى عنه إذا ورى، أو من الكنيّة (ابن منظور، اللسان، مادة كني)، والكناية كلام استتر وإن كان معناه ظاهراً في اللغة (شريف الجرجاني، كتاب التعريفات: ٢١٣)، والجملة الأخيرة تعني أنّه معروف لدى الكثيرين، من خلال تعاملهم في منطوق لغة واحد.

والكناية من الصور البيانية التي تعرض لها الزمخشري، فنجده مثلا في تفسيره قوله تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ (الزمخشري، ج٣ ص٢١) يقول معلقا عليها: "التعريض هو أن يقول لها إنك جميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج، الله أن ييسر لي امرأة صالحة، وعسى ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد زواجها، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أن أتزوجك، أو أخطبك...فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟. قلت الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف. والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك الأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم

مني تقاضيا وكأن إمالة الكلام إلى عرض جانب يدل على الغرض ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده (البقرة، الآية ٢٣٥).

وتعريف الكناية على هذا النحو يجعلها أشبه بالمجاز الذي تستعمل فيه الألفاظ في غير ما وضعت له، ولعل الزمخشري يريد أنها تدل على لازم معناها الأصلي، مع دلالتها على معناها الحقيقي تبعا بخلاف التعريض فإنه يدل على المعنيين جميعا، وقد جعله من جاءوا بعده صورة من صور الكناية. (الزمخشري، ج١ ص ٢٧٨/٢٧٩)

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران، الآية ٧٧) ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ مجاز على الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه وأصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر. ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجردا لمعنى الإحسان، مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر (الزمخشري، ج١ ص٣٦٩) وهو هنا يلاحظ في الكناية أنها مجاز من جهة وأنها تدل على المعنى الأصلي من جهة ثانية، إذ جعلهما يجتمعان في الآية الكريمة.

والزمخشري في هذه الآية لم يتناول الآية ككل، وإنما تناول بالنظر الدقيق جزءا منها هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ وكشف عما وراء الكناية فيه من معان وأفكار ولو أنه تناول الآية ككل بمثل تلك القريحة لأبان عن روعة ما يتعلق بالنظم من معجز الصور (الزمخشري، ج١ ص٣٦٩).

فانظر كيف أن الآية مشحونة بدلالات ومعان بعضها يبين عن ملامح نفسية، وبعضها يضع ركيزة هامة لبناء صرح الحياة الاجتماعية، وبعضها يرسم حدودا للمعاملات والأخلاق والقرآن كله على هذا النمط طاقات من تلك المعاني تحتاج إلى بحث وتنقيب وجهود تتظافر وتجتمع لتستخرج منه كامن الأسرار.

وإذا نظرنا في أمثلة الزمخشري مما يتعلق بهذا الموضوع، أي كناية الصفة نجدها متعددة وثرية بآرائه ومثالها ما جاء من قوله تعالى: ﴿اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء، ١٧/٢٤)

يرى الزمخشري في الآية أن المعنى: أن تجعل الذلة لهما جناحاً حقيقياً وذلك مبالغة في التذلل والتواضع (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ٢/٤٥٥)، فخفض الجناح هنا دليل على المحبة التي يجب أن يكنها الولد لوالديه على ما قدماه، ودليله في الآية نفسها ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء، ١٧/٢٤) فهو يطلب منه التذلل لهما واحترامهما ويسوق له مثالاً ما قدماه له في صغره، ليستوجبا حسن المعاملة، فخفض الجناح كناية عن صفة وهي التوام والتذلل. وقد استوقفني تفسير للآية يقول: بأن معناها يوحي بأن للرحمة جناحاً آخر غير الذل، فهو استعار من الطائر هذا المعنى الأول ما كان للذل والتواضع، والثاني للتجبر والاستعلاء، وأراد بهذا أنّ المرء لا يتذلل إلا لمن يستحق هذا التذلل وهو الله سبحانه وتعالى، والوالدين، وإلا فعلى المؤمن أن يكون قوياً في مواقف أخرى (الشوكاني،١٩٩٠م: ٣٦٧). ومنها قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات، ٤٩/١٢) يرى الزمخشري أنّ في الآية تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرضه على أفظع وجه وأفحشه ولم يقتصر حسب رأي الزمخشري على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ٣/٥٦٨). لم يذكر الزمخشري الآية كما رأينا على أنها من الكناية بل عدها تمثيل، فهل نستطيع مرة أخرى أن نقول بفكرة تنبهه مبكراً للصورة التي يُعزى إليها اليوم الكثير من فنون البلاغة إن لم تكن جميعها. فنحن نلحظ من خلال النص مشهداً تتمثل فيه عناصر حية تدمج معاً، وتُعبر دون كلام عما تريد. وأمثلة هذا عند الزمخشري كثيرة لاحظناها في فصول سابقة وكذا سترد على لسانه في فصول أخرى لاحقة، فهل وصل إلى تمثل المناحي البلاغية تمثلاً جعله يرى فن التصوير على أنه الفن الصحيح الجامع لمثل هذه القضايا، نظراً لتلك الأبعاد التي توحيها الدلالات المختلفة للآيات.

ونحن نلحظ في الآية كناية عن حالة الاغتياب، فالمرء حين يغتاب أخاه الذي لا يسمع ما يقال عنه يكون هذا في حكم الميت، الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، والإنسان أيضاً بطبعه يعاف لحم الميتة، فكيف إذا كان هذا الميت بشراً وأخاً، وكذلك الغيبة تحدث في النفس أثراً كذا اللحم المنفر الفاسد، فالخالق سبحانه يريد أن تعاف النفس الغيبة لأنها محببة لدى الكثير من الناس وأداة للتسامر فيما بينهم (الشوكاني، ١٩٩٠م: ٦٨٦). وهذه الآية الكناية تهويل وتعظيم لمثل هذا العمل الذي قد يجلب على المجتمع الإسلامي مشاكل لا يرتضيها الله لعباده المؤمنين.

ومنها قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ (القلم، ٦٨/١٦) يرى الزمخشري أن الوجه أكـر موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع في الوجه؛ لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العـز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: فلان شامخ العرنين، وقالوا في الذليل جدع أنفه، ورغم أنفه؛ فعبر بالوسم عن الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة؛ لأن السمة على الوجه شين فكيف بها على أكرم موضع منه (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ٤/١٤٣. ٣)). وقوله: (سنسمه على الخرط ـوم م) أننـا سنجعل الوسم بالسواد على أنفه، وذلك قبل دخول النار، فيكون له على وجهه علامة ويلحق به شيئاً لا يفارقه (الشوكاني، ١٩٩٠م:٧٥٨)، وهذه العلامة لن يمحى أثرها ولن تخفى على أحد.

وقد كنى في الآية بالوسم عن الإذلال، وكذلك قد يكون الإذلال كالوسم، إذ تتغير الملامح لأنّ المرء يفقد شيئاً من عنفوانه وأنفته، وأفادت الكناية هنا التعريض بالكفـــار فنحن نلحظ لوحة كريكاتورية لرجل عتل، قصير القامة، ضخم الوجه، عظيم الكرش وسوء خلقه، يأكل فلا يشبع، ويتحرك فلا ينشط، مكروه في كل مكان لنهمه وقبحه اللؤم واضحاً في سحنته الكريهة، له أنف طويل كالخرطوم يجره أمامه، وقد وسم كما يوسم العبد (سلطان، ١٩٩٨م: ٦٥). ومع أن في الآية تعريض كما ذكرنا إلا أننا إرتأينا أن نجعل كل واحدة في فصل مستقل حتى لا تختلطا معاً من ناحية، ولأنّ الزمخشري كان يذكر في أحيـــان كثيرة كل واحدة منهما باسمها، رغماً عن أنّ الكثير من البلاغيين قد جعلهما في باب واحد.

ومنها قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة، ٢/٢٢٣) يرى الزمخشـــري أنها من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كـــلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها، ويتأدبوا بها، ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ١/٣٦٢)، ولم يعلق الزمخشري على الآية بأكثر من ذلك وإنما عدهـا مـن بـاب الكناية والتعريض على الرغم من أنه يفرق بينهما في معرض حديث لـه عـن التعريض.

وفي هذه الآية كناية لطيفة موحية عن ملابسات زوجية، وفيه تصوير دقيق للعلاقة بين الزارع وأرضه، والزوج والزوجة في مجال خاص جداً، وفيها إبراز لنتيجة العلاقة الموحى بها، فثمة نبت يخرجه الحرث، ونبت ينتج عن العلاقة الزوجية وفي كليهما عمران وفلاح

(عبد العال ١٩٩٠م:٧٥). وقد أورد الزركشي الآية في باب ما يفحش ذكره في الأسماع (الزركشي، ١٩٨٨م: ٣٠٣-٣٠٤)، وقد ذكرنا أن أمثلة هذا في القرآن الكريم كثيرة ونحيلكم إلى ما ورد منـــها في الكشاف (مطلوب، م٢٠١٥: ٣/١٦٢)

٣- الاستعارة:

أخذت الاستعارة من العارية والعارية والعارة في اللسان: ما تداولوه بينهم، وقـــد أعاره الشيء وأعاره منه وعاوره إياه، وتعوّر واستعار طلب العارية، واستعاره الشيء واستعاره منه طلب منه أن يعيره إياه (ابن منظور، اللسان، مادة عَوْرَ)، والاستعارة نقل الشيء من شخص إلى آخـــر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه (مطلوب، ٢٠١٥م:١٣٦).

وقد تعرض لها الزمخشري وإلى أقسامها كالتصريحية والمكنية، والأصلية والتبعية وهي عنده إنما" تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام (رضا، ١٩٩٩م، ج٣: ٢٨٢)". وهو يرى أن الاستعارة إما أصلية وتكون في الأسماء وإما تبعية وتكون في الصفات والأفعال.

يقول في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر: ٦٩) قد استعار الله النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك والمعنى وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات (الزمخشري، ج١: ٨٣).

ويقول في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾: "معنى اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه، واستبدالها به على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر (الزمخشري، ١٩٩٠م:١٤٠) وهي استعارة تبعية في الفعل.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧) نجده يذهب إلى أن "النقض هو الفسخ وفك التركيب فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث وهذا تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة من المتعاهدين من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بشيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا

تزوجت امرأة فاستوثرها لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش (المصدر نفسه:٧٦) وهذه من الاستعارة المكنية.

ومن الجدير أن نذكر أن إشارات الزمخشري لفن الاستعارة تخلو تماما من مصطلحات الاستعارة الأصلية والتبعية وكذلك الاستعارة بالكناية، وإن كان يفهم منها مضمون هذه المصطلحات على وجه العموم. (المصدر نفسه: ٧٦)

ومن الأمثلة على وجود هذا النوع من الاستعارة في تفسير الزمخشري، ما جاء في حديثه عن قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتُخرج النّاس من الظلمات إلى النور) (إبراهيم، ١٤/١) والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى عند الزمخشري (المصدر نفسه: ٢/٣٦٥) وتمثيلها على النحو التالي:

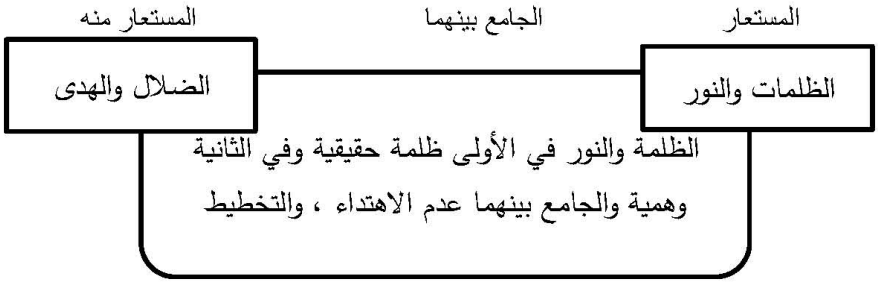

فالظلمات في الآية مستعارة للضلالات والجامع بينهما عدم الاهتداء، وهي تصريحية أصلية وسيرد) تعريف الاستعارة التصريحية وأمثلة عليها في جزء آخر من هذا البحث) أما لفظة النور فقد استعيرت للهدى، والقرينة في كل من الاستعارتين قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك) فالقرآن قد نزل لإخراج الناس من الضلال إلى الهدى، ولم ينزل لإخراجهما من ليل حقيقي إلى نهار حقيقي.

وقوله هذا موجه إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه ف أن يُخرج الناس بدعوته إياهم واتباع ما جاء في الكتاب؛ فالظلمات ظلمات الكفر والجهل، والنور نور الإيمان والعلم. وقد جمعت الظلمات ومفردها ظلم؛ لأن طرق الكفر متشعبة وكثيرة، وأفرد النور؛ لأن طريق الإيمان واحد مستقيم والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة؛ لإخراجه المعقول إلى المحسوس بالإبصار، (والظلمات والنور أسماء جامدة) وهذا ما قال به السكاكي من وجوب كون المستعار اسم جنس. وإذا عدنا إلى قولنا إخراج المعقول إلى المحسوس، فمعنى هذا الخروج مما

يُدرك بالعقل وهو الأمور المجردة إلى ما يُفهم بالحواس ويدرك بها، ذلك أن الكفر والإيمان أمران ذهنيان مجردان، وليسا حسيين، فلما ذكر الظلمات والنور خرج من المجرد إلى ما يدرك بإحدى الحواس، وهي حاسة البصر هنا، ولعلها أهم الحواس في تمييز الظلمات من النور.

ومنه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ١/٦) والمراد بالصراط هنا طريق الحق وهو ملة الإسلام(الزمخشري، ١٩٩٨م: ١/٦٨) فالصراط المستقيم تعني الطريق السالك الذي يوصلك إلى ما تريد وَيَعْبُرُ بك إلى المكان الذي تتشده دون تعرج أو متاهات، وكذا هذا الدين يقودك إلى الخير والجنان (فكلاهما يوصل إلى المطلوب) (بدري،١٩٨٤م: ١٨٥) ومنه قوله سبحانه جل وعلا: (وعلى الأعراف رجال) (الأعراف: ٧/٤٦) يرى الزمخشري أن قوله (على الأعراف) أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه (وأعراف جمع عُرف استعير من عرف الفرس وعُرف الديك عنده (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ٢/٨١)، وهو أعلى شيء في جسم الفرس أو الديك، يظهر للعيان قبل سواه، وكأنه أراد بقوله الأعراف: العالية المشرفة نظراً لأن من يكونون عليها سينظرون إلى جميع ما حولهم الجنة ومن عليها، والنار ومن فيها. ومثالها ما جاء من شعر المتنبي:

أحبك يا شمس الزمان وبَدره ... وإنْ لامَني فيكَ السِّها والفَراقِدُ[٢]

استعار الشمس والبدر ليدل على النور الذي يبعثه الحبيب والجامع بينهما التلألؤ وإنارة الحياة، وبعث المسرة، إذ تنتشي النفوس بوجود الضياء (انظر القزويني، الإيضاح: ٤٢٢)، وهي أصلية كون الشمس والقمر أسما جنس جامدان.

ثالثاً: نماذج من دلالات علم البديع في النظم القرآني.

قبل الحديث عن مدى إسهام الزمخشري في ميدان البديع تجدر الإشارة أولا إلى أن المتكلمين منذ القرن الخامس من الباقلاني إلى عبد القاهر ممن عنوا بإعجاز القرآن قد نحوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في القرآن، لأنه في زعمهم لا يدخل في بحث الإعجاز القرآني، نظرا لأن كثيرا من فنونه مستحدث وما ورد منه في القرآن إنما جاء دون قصد وتكلف. فعبد القاهر لم يعن كسابقيه من المتكلمين بقضية البديع في القرآن، بل عرض للسجع والجناس وحسن التعليل والطباق..." ومضى الزمخشري على هذا الهدى لا يعني بما جاء في الآيات القرآنية من بديع إلا عرضا، ونرى السيد الجرجاني ينقل عنه أنه لم يكن يعد

البديع علما مستقلا من علوم البلاغة، إنما كان يعده ذيلا لها وتتمة تحمل عليها. وكانت هذه النظرة إلى البديع عنده سببا في أن لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية، وأن لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين. (الزمخشري، ج١ ص١٢٤).

والحقيقة أن الزمخشري ليس منكرا للصنعة البديعية فبها يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللب، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحيها نظم الكلام (العمري، ١٤١٠ق: ١٦٢). وسأقف على نماذج من ذلك فيما سأعرض له من أمثلة.

١- الجناس

وقد عرض له الزمخشري في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وقوله: ﴿مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبل) بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما في النيل من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

٢- المشاكلة

وقد عرض لها في عدة آيات من ذلك في قوله في سورة البقرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ ((النمل: ٢٦) يقول: "يجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة. فقالوا: أما يستحيي رب محد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت، فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب هو مراعاة المشاكلة...والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه (الزمخشري، ١٩٩٨م، ج ٣: ٣٤٨).

٣- أسلوب اللف والنشر

من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة: ١١١).

يقول: "المعنى وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن

يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه" (المصدر نفسه: ١١٧/١١٨)

خاتمة البحث:

في نهاية البحث استنتج الباحث ما يلي:

١. لقد اعتمد الزمخشري على طريقة الفنقلات في طَرْق جوانب عديدة وعَرْض قضايا مختلفة. إلى مناقشتها، كما سمحت له بتوسيع معنى الآيات وإثراء تفسيره بمباحث مميزة في شتّى الفنون؛ من بلاغة ونحو وصرف ورسم وعقيدة وفقه وغيرها وأما الافتراضات الخاصة بالبلاغة، فقد كانت الجانب البارز من الكشّاف، ولقد وظف الزمخشري طريقة الفنقلات لتوسيع البحث في القضايا البلاغية الكاشفة عن سرّ النظم.

٢. تبيّن أن الزمخشري ميّز بين الكناية والتعريض وفرق بينهما، وقد أتاح هذا الفصل الذي فصلنا الحديث عنه في متن الدراسة، للدراسات البلاغية العربية القديمة أن تسير في اتجاهين مختلفين، وإن كان ا لا يتعارضان الأول هو الاتجاه الذي لا يفرق بينهما، ويعاملهما على أنهما يقعان في الحقل البلاغي نفسه، وأما الثاني فهو الذي يقول به الزمخشري الذي يأبى أن يعدهما في باب واحد ولا يفصل بينهما، وقد كان هذا اتجاها متفردا في زمنه، وظل موجوداً عند من جاءوا بعده على أنّه من الجدير بالذكر أننا نجد من اللاحقين من لا يتابع الزمخشري على هذا، فقد أصر هذا الفريق على متابعة الفريق الذي لا يفرق بينهما.

٣. لم يحظ علم البديع بالعناية التي حظي بها القسمان الآخران من أقسام علم البلاغة، وهما علم البيان وعلم المعاني، والسبب في هذا من وجهة نظر الدراسة يعود إلى نظرته إلى هذا الفرع على أنه ذيل لهما، ولهذا فقد أدخل مسائله في المسائل التي تخص هذين العلمين، من قبيل أن المسألة تتعلق بالبيان والمعاني وتتداخل معهما.

٤. اهتم الزمخشري بدراسة الالتفات، وهو شكل من أشكال العدول، اهتماماً كبيراً، فأورد عدداً كبيراً من أنماطه الواردة في القرآن الكريم، وربما أمكننا أن نعيد السبب

في هذا الاهتمام إلى عنايته بالقراءات القرآنية، خلافاً لما شاع عن المعتزلة من نظرة تشي بعدم الاهتمام بها، أو مهاجمتها في كثير من الأحيان، وقد وظف هذا الباب في إبراز الإعجاز القرآني.

٥. كان الزمخشري يفيد كثيراً من العالم البلاغي الكبير عبد القاهر الجرجاني، وتبدى ذلك من التشابه في الأمثلة بينهما، غير أن هذا التشابه لا يعد عيباً، فقد كان مستقلا عنه في كثير من آرائه وطروحه وبعض أمثلته.

٦. من أهم ما لاحظته الدراسة على معالجة الزمخشري لباب الاستعارة، أنه لم يكن يسمي الاستعارات باسمها، إلا في الاستعارات التخييلية والتمثيلية كما سمّى بعض الاستعارات الترشيحية بالمجاز الترشيحي، ويمكن أن يعاد هذا إلى أنه لم يكن معنياً بالفصل بين الاستعارة والمجاز عناية كبيرة.

٧. لقد اهتم الزمخشري بالدلالة اهتماماً كبيراً، ومرد هذا الاهتمام يعود إلى أنّ الكتاب الذي ندرسه كتاب في تفسير النص القرآني، فلا بد والحالة هذه، من الاهتمام بالمعنى، وهو الركيزة التي يسعى إليها علم التفسير؛ لأنها هدفه وغايته، كما أن علم البلاغة الذي وظفه الزمخشري في الكشف عن إعجاز القرآن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الدلالة.

٨. اهتم الزمخشري بدراسة التقديم والتأخير؛ لأنّهما من الركائز المهمة في دراسة المعاني التي نتوخاها من نحو الجملة، ولذلك جاءت دراسته لهما مرتبطة بدراسته للقصر.

هوامش البحث

(١) وصار بيت للأعشى قال فيه: إني أتتني لسان لا أسر به من علو لا كذب فيه ولا سخر). فعبر باللسان عن الكلام مجازا لأنه آلته .

(٢) المتنبي، الديوان بشرح أبي البقاء العكبري المسمى التبيان) في شرح (الديوان)، ضبط نصه وصححه: كمال طالب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (ط ١) (١٤١٨هـ ١٩٩٧م) ١/٢٨٥.).

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١هـ)، (١٤١٤ق)، لسان العرب: التعليقات والحواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين، ط٣، بيروت: دار صادر.

٢. الأشقر، محمد سليمان (١٤١١ق/ ١٩٩٠م) زبدة التفاسير من فتح القدير، (وهو مختصر عن تفسير الشوكاني المسمى بـ"فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير"، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.

٣. آل جعفر، مساعد مسلم؛ ومحي هلال السرحان، (١٩٨٠م)، مناهج المفسرين، ط١، دار المعرفة،

٤. ايازي، السيد محمد علي، (١٣٧٣ش)، المفسرون حياتهم ومنهجهم، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

٥. الجويني، مصطفي، (١٤٠٤ق/١٩٨٤م)، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، بيروت: دار المعارف.

٦. الخالدي: لاح عبد الفتاح، (٢٠٠٨م)، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دمشق: دار القلم.

٧. الذهبي، محمد حسين، (٢٠٠٠م)، التفسير والمفسرون، ج١، القاهرة: مكتبة وهبة.

٨. رضا، رشيد، (١٤٢٠ق/ ١٩٩٩م)، تفسير المنار، ج ٣، ط١، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.

٩. الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، (١٤٣٨ق/٢٠١٧م)، أصول التفسير ومناهجه، ط٣، الرياض: مؤسسة الرسالة.

١٠. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (١٩٩٨). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، بتحقيق: أحمد عبد الموجود، الرياض: مكتبة العبيكان.

١١. سلطان، نادية، (١٤١٨ق/١٩٩٨م)، التصوير بالكلمات مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن، دمشق: إشبيلية للدراسات والنشر.

١٢. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (١٩٨٨).الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٣. شحاتة، عبد الله، (١٤٢١ق/٢٠٠١م)، علوم التفسير، ط١، القاهرة: دار الشروق.

١٤. الصالح: بحي، (٢٠٠٠م)، باحث في علوم القرآن، ط ٢٤، بيروت: دار العلم للملايين.

١٥. عبّاس، فضل حسن، (١٤٣٧ق/٢٠١٦م)، إعجاز القرآن المجيد، مراجعة وتعليق: سناء فضل عباس، ط ١، الأردن: دار النفائس.

١٦. عبد العال، محمد قطب، (١٤١٠ق/١٩٩٠م)، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، مجلة دعوة الحق، تصدرها رابطة العالم الإسلامي، السنة التاسعة، العدد٩٩، مكة المكرمة.

١٧. العمري، أحمد، (١٤١٠ق)، المباحث البلاغية فى ضوء قضية الإعجاز القرآني: نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٨. ياسوف، أحمد، (١٤١٩ق -١٩٩٩م).جماليات المفردة القرآنية، ط٢،دمشق: دار المكتبي.